# مخطوطة مصورة

## من عجائب المخلوقات للقزويني

بقلم الدكتور صلاح الدين المنجد

كان تصوير المخطوطات لوناً من ألوان التصوير الذى برع فيه العرب المسلمون ، وانبثقت عنه مدارس مختلفة نسبت إلى بعض الفنانين المصوّرين ، أو إلى بعض المدن الإسلامية التى ازدهر التصوير فيها . وقد شاع التصوير فى المخطوطات التى يساعد موضوعها على ذلك ككتب النبات ، والحيوان ، والهيئة ، والحيل ، والفروسية ، والحروب ، والطب ، والعجائب ، وبعض كتب الأدب. ولا نتحدث هنا إلا عن المخطوطات العربية ؛ لأننا نجد فى المخطوطات الفارسية كتباً فى فنون أخرى شاع فيها التصوير .

ولعلّ من حسن الحظ أن فى معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية عدداً كبيراً من الكتب المصورة فى فنون شتى التقطها وصوّرها من مكتبات العالم المختلفة فى أوروبة والشرق ، وفى هذه المخطوطات ما هو نادر ، أو جدير بأن تدرس أساليب التصوير فيه ، وكثير منها غير معروف لم يشر إليه أحد من الباحثين .

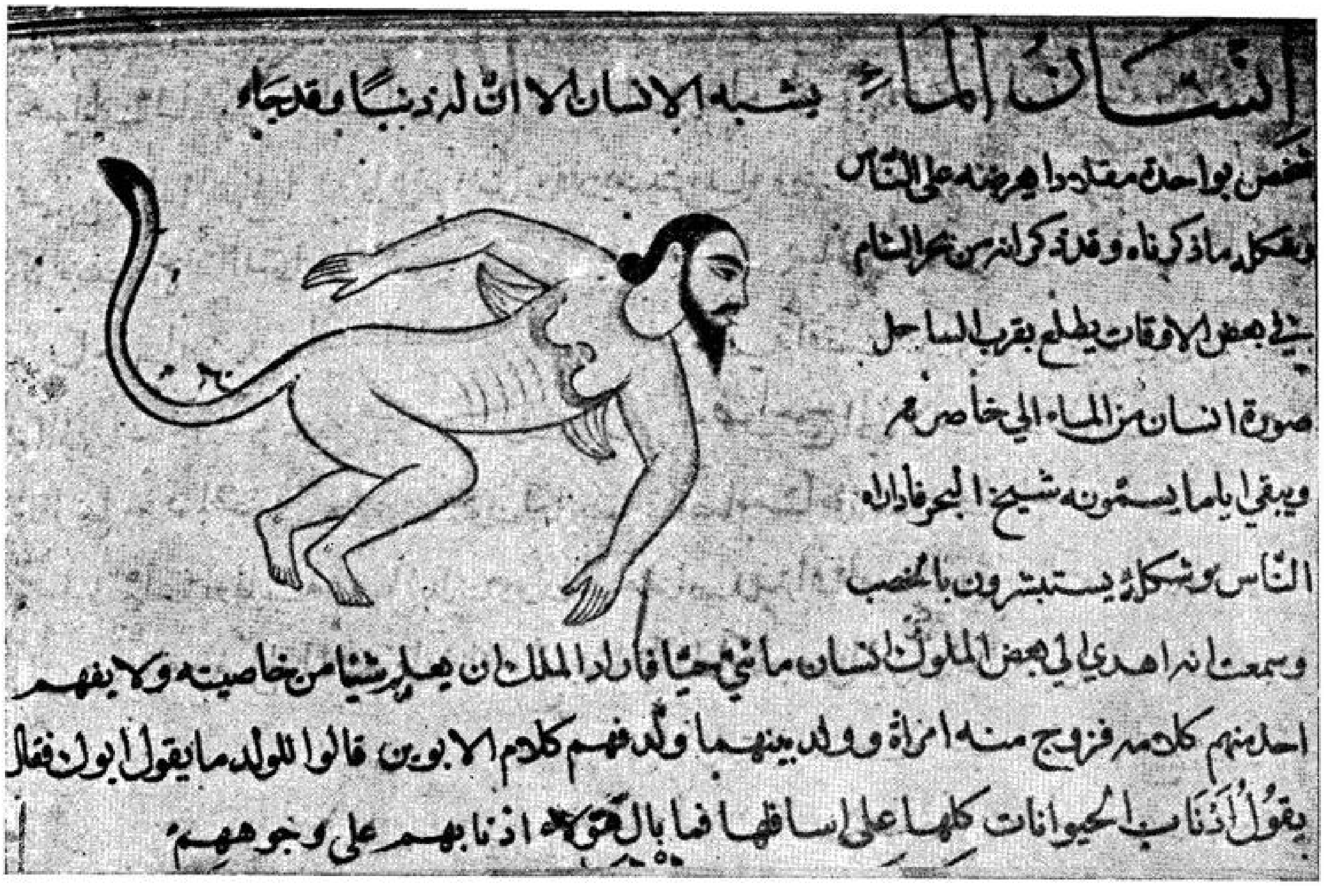
ومن هذه المخطوطات ، مخطوطة نادرة من كتاب « عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات » للقزوينى ، كان المعهد صوّرها من مكتبة رضا رامبور فى جملة ما صوّر من مخطوطات الهند .

وسنقدم هنا تعريفاً موجزاً بالكتاب ، وتقديماً لبعض صوره :

يعدّ هذا الكتاب من أشهر الكتب التى ألفت فى العجائب وأجمعها ، ألفه زكرياء بن محمد القزوينى المولود فى قزوين سنة ٦٠٠ من الهجرة ، وكان قد ترك قزوين ورحل فى صباه إلى دمشق ، واتصل فيها بابن عربى الفيلسوف المتصوف المعروف ، ثم ولى قضاء مدينة الحلة ثم مدينة واسط بالعراق . ولما سقطت بغداد على أيدى المغول فى سنة ٦٥٦ هـ كان القزوينى قاضياً بواسط ، وتوفى فيما بعد سنة ٦٨٢ هـ ونقل إلى بغداد .

وقد تكلم القزوينى فى كتابه عن العجائب والغرائب التى فى هذا الكون ، فقسم كتابه قسمين : العلويات والسفليات ؛ وتكلم فى مقالته الأولى عن عجائب السماء وسكانها ، والشمس ، والكواكب ، والأفلاك ، والبروج وغير ذلك ؛ وتحدث فى المقالة الأخرى عن عجائب السفليات ، ويقصد بالسفليات « ما دون الفلك : من كرة الأثير ، وكرة الهواء وسحبها وأمطارها ، وكرة الماء وعجائب بحارها ، وكرة الأرض وسعتها وقرارها ، ورسوخ جبالها ، وامتداد أنهارها ، وفوائد معادنها ، وخواص أشجارها . . . »

وقد روى فيه كل ما قرأ أو رأى أو سمع ، دون أن ينقد ما كتب وأثبت ؛ وعلى هذا صارت مادة الكتاب خصبة واسعة شملت الأرض والسماء وما بينهما ، وفى ذلك كل مجال مترامى الأطراف للتصوير ؛ ولهذا نجد أن الفنانين المسلمين قد عنوا بتصويره : فنحن نعرف بمونيخ نسخة ثانية منه مخطوطة مصوّرة أيضاً ، وقد تكون منه نسخ أخرى فى المكتبات الخاصة لم يكشف عنها . أما مخطوطتنا هذه فما نعلم أن أحداً درسها ، وكنا نوّهنا بها من

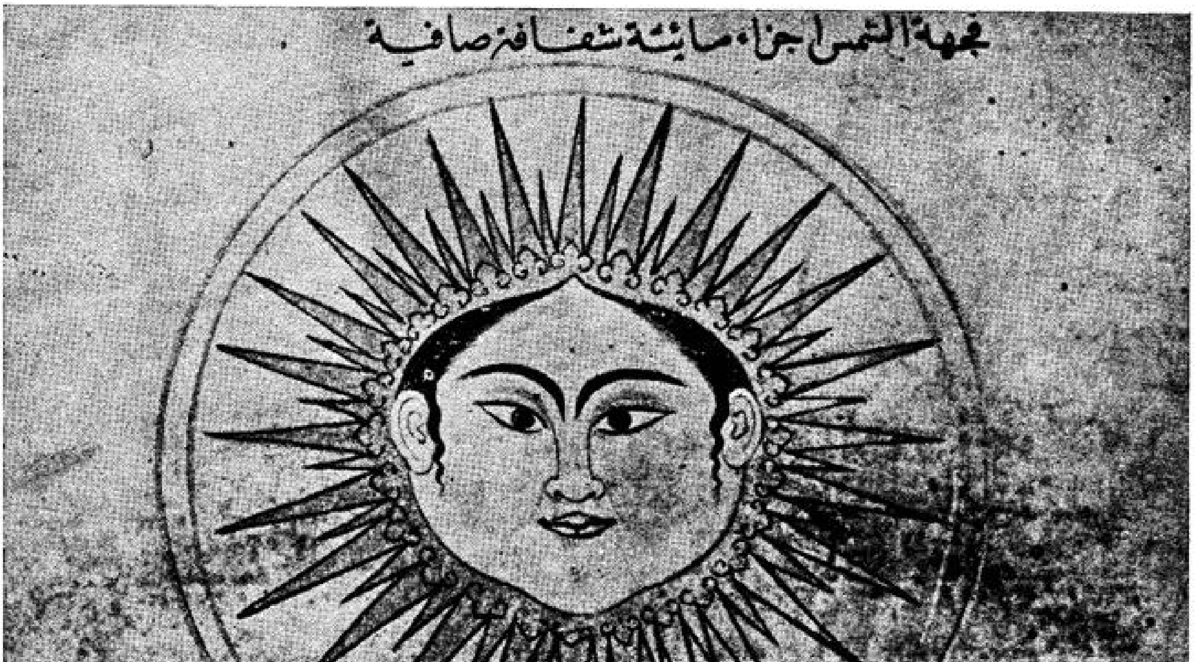

انسان الماء يشبه الانسان الا ان له ذنبا وقد جاء
وسمعت انه اهدي الى بعض الملوك انسان مائي حيا فاراد الملك ان يعلم شيئا من خاصيته ولا يفهم
احد منهم كلامه فزوج منه امراة وولد بينهما ولد فهم كلام الابوين فقالوا للولد ما يقول ابوك فقال
يقول اذناب الحيوانات كلها على اسافلها فما بال هؤلاء اذنابهم على وجوههم


ومنها الشيخ اليهودي قال ابو حامد الاندلسي
هو حيوان وجهه كوجه الانسان وله لحية بيضاء
بالشيخ اليهودي لانه يخرج من البحر ليلة السبت الى البر حتى تغيب الشمس ليلة الاحد
فاذا غابت الشمس ليلة الاحد وثب كما يثب الضفدع ويدخل البحر

صورة رقم ٢



صورة رقم ٣




صورة رقم ٤



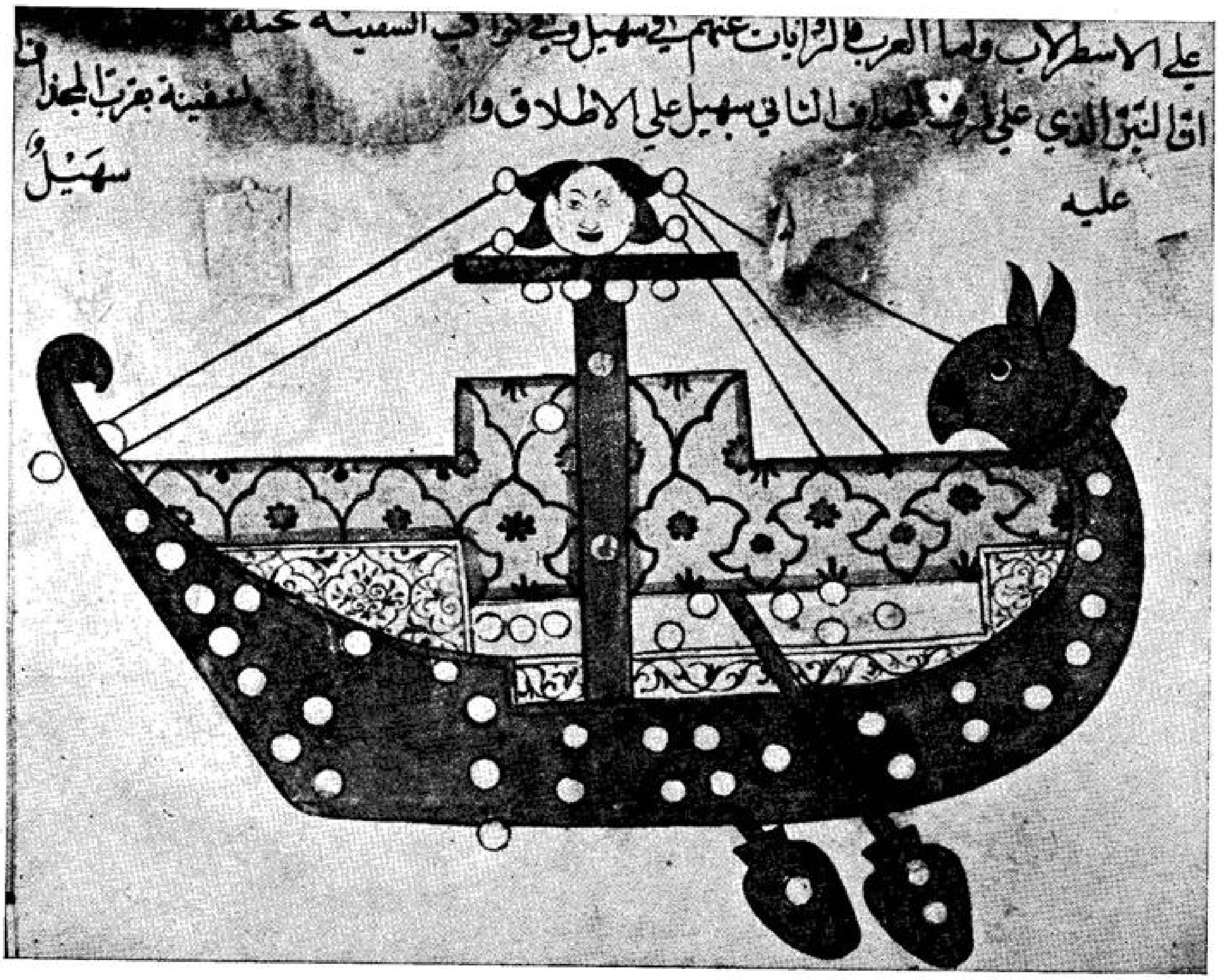
قبل فى مجلة الهلال ( مايو ١٩٥٦ ) عند ما تحدثنا عن « الملائكة فى تصوير الفنانين المسلمين » .

ولا ندرى : من صوّر المخطوطة ؟ فالكتاب خال من نص يبين اسم المصوّر . على أننا نجد فى آخره أن الّذى كتبه هو « ابن كمال الدين حسين » سنة تسع وسبعين وتسعمائة من الهجرة : أى فى أواخر القرن العاشر الهجرى السادس عشر الميلادى . ومن المرجح أن كاتبه هو مصوّره أيضاً ؛ فالمعتاد فى بعض المخطوطات المصوّرة أن يكون كاتبها ومصورها واحداً .

وصور الكتاب واضحة بحال جيدة . وكلها بالألوان وما تزال ألوانها فى الأصل المحفوظ فى الهند محافظة على بهائها ورونقها . غير أن بعض التصاوير أصابها التلف أو التشويه ، أو ألصقت على الوجوه الآدمية فى زمن متأخر أوراق أخفتها . وجميع هذه الصور ترجع فى رأينا إلى المدرسة الإيرانية التى ازدهرت فى إيران فى القرن العاشر الهجرى : أى فى القرن الذى كتب المخطوط فيه ؛ كما نلاحظ آثاراً مغولية فى ملامح بعض الوجوه ؛ مما

صور

صورة رقم ٦ .






صورة رقم ٧

يدعو إلى التفكير فى أن مصوّرها هندى تأثر بالمدرسة الإيرانية .

وتبين لنا الصور كيف كان الفنان المصوّر يتخيّل ما كان يصوّر. وليس هنا مكان دراسة هذه الصور دراسة فنية دقيقة ، ولكن هناك أشياء تسترعى النظر : فمثلاً نلاحظ أن كثيراً من حيوانات البحر ، أو من الكواكب أو الملائكة — قد تخيله الفنان على شكل هو مزيج من الآدمية والحيوانية ؛ فهو يصوّر إنسان الماء الذى يذكر القزوينى أنه يكون فى بحر الشام — على شكل غريب : وجه آدمى بلحية مسنونة وشعر مرجّل ، وجسم كالسمك ، وذنب طويل كذنب الحمار ! ( صورة رقم ١ ) .

ويصوّر الشيخ اليهودى — وهو حيوان مائى فى جهات الأندلس — فى حجم العجل وصورة الضفدع ، وله وجه كوجه الإنسان مزدان بلحية بيضاء ، (صورة رقم ٢ ) .

وقد أخذ الفنان هنا هذه الأوصاف مما نقله القزوينى نفسه ، وسُمِّى هذا الحيوان الشيخ اليهودى ؛ لأنه يخرج — كما زعموا — من البحر ليلة السبت إلى البر ، فيبقى به حتى تغيب الشمس ليلة الأحد ، لا يأكل ، ولا يدخل الماء ، ولا يتحرّك ولو ضُرب أو قتل ؛ فإذا غابت الشمس ليلة الأحد وثب كما يثب الضفدع ، ودخل البحر .

ويصور بعض سكان جزائر بحر الهند — وهى جزائر مجهولة — على شكل آدميين ليس لهم رقاب ، ألصقت رءوسهم بصدورهم ( صورة رقم ٣ ) .

ونجده يصوّر الشمس على شكل وجه امرأة قريب من الاستدارة ، ذات حاجبين مزججين ، وسالفين يتدليان على الخدّين . وتحيط بالوجه هالة تشعُّ شعاعات طويلة وقصيرة . ( صورة رقم ٤ ) .

أما جبريل أمين الوحى ، فقد صوره بشكل رجل



صورة رقم ٨

وسيم الطلعة ، ممتلئ الجسم ، عليه سكينة ، وله جناحان واسعان ، وضفيرتان تتدليان على جانبيه حتى أسفل ثوبه . وقد ضمّ يديه إلى صدره ( صورة رقم ٥ ) .

وعند ما صوّر كوكبة السفينة ، وهى من كواكب السماء جعلها على شكل سفينة ، لكنه لم ينس أن يجعل فوق ساريتها رأس إنسان ( صورة رقم ٦ ) .

وقد أبدع المصوّر فى تصوير بعض الحيوانات : كالفيل ( صورة رقم ٧ ) ، أو الغزال ( صورة رقم ٨ ) ، وفى صورة الغزال تبدو الحركة والرشاقة والتناسب بصورة جلية .

* * *

وعسى أن يتوفر بعض الباحثين على دراسة هذا المخطوط دراسة أكثر دقة ؛ فهو مخطوط نادر مهم .